سـؤال النسـق في عناوين كتب أبـي حيـان الغرنـاطي .

The Question of the system in Abu Hayyan Al-Gharnathi books'tiltes.

أ.د. نـــاعيم مليكـــة

(جـــامعة القرويين– المغرب)

Email : nana_malika@ymail.com

مجلة البحوث والدراسات الإنسانية العدد 9–2014 ص ص. 38 – 56

الملـــخص

تعتبر العناوين من القضايا المثيرة في التراث العربي؛ سواء فيما يتعلق بعلاقتها بالمتن الذي تعينه، أو فيما يتصل بعلاقتها ببقية عتبات الكتاب، أو فيما يتعلق ببقية عناوين المؤلف نفسه، لذا ارتأت هذه الدراسة مقاربة السؤال الاتي: هل يمكن أن نتحدث عن نسق معين في مقدمات كتب أبي حيان الغرناطي؟ وهل القول به دليل على وضوح الأسس الابستمولوجية والإطار المنهجي لدى أبي حيان في كتاباته اللغوية والنحوية؟

الأمر الذي يستلزم التوسل بمنهج كفيل بكشف دلالته وإظهار خصائصه وعلاقته بالموضوع ثم بغيره من كتب المؤلف نفسه، خاصة في اللغة والنحو.

الكلمات المفتاحية: عنوان، نسق، نمط، التراث اللغوي.

Abstract

The addresses of the controversial issues in the Arab heritage, both with regard to their relationship , appointed by or in relation to its relationship with the rest of the thresholds of the book or with respect to the rest of the same author addresses this study therefore considered it approach the question as follows: is it possible to talk about a certain pattern in the introductions books Abi Hayan el gharnati? does say in the Manual on the clarity of the Foundations Methodological Framework to Abi hayan often language in his writings for spelling or grammar? which requires begging method would reveal significant and show its characteristics and its relationship to the subject and then other books the author himself, especially in the language and grammar

***Keywords**: titles, type, systems, linguistic heritage.*

مقدمـــــــــة

تحديد المفاهيم

يقصد بالنسق في اللغة ما كان عل طريقة نظام واحد، عام في الأشياء، وقد نسقته تنسيقا... والتنسيق التنظيم"(ابن منظور، 2000)، وفي الاصطلاح مجموعة من العناصر المتفاعلة فيما بينها وتكون متماسكة ارتباطا ومتكاملة حركيا ومتكافئة وظيفيا ومتناغمة ايقاعيا (عبد الدايم: 2011: 13)، إنه يتألف من نظريات تحتوي كل واحدة منها على موقف معين من مشكلة معينة؛ إذ تكون نظريات النسق كلها مترابطة ومتماسكة البناء، ويمكن الحديث عن النسق عند علم معين، بمعنى الإطار الفكري الذي يربط أفكاره بعضها ببعض في وحدة عضوية من دون أن تحتوي تناقض أو تقاطع (روزنتال ل.1974: 526)، ويتكون النسق من مجموعة من العناصر التي يرتبط بعضها ببعض مع وجود مميزات لكل عنصر واخر (مفتاح 1996: 156)، وبهذا المعنى سيرد النسق في دراستنا[i].

العنوان: عرف صاحب اللسان العنوان بالقول: "وعننت الكتاب وأعننته لكذا أي عرضته له وصرفته إليه. وعن الكتاب يعنه عنا وعننه، كعنونه، وعنونته وعلونته بمعنى واحد، مشتق من المعنى"(ابن منظور، 2000)، وقال صاحب تاج العروس: "وقال سمي به لأنه يعن له (أي الكتاب) من ناحيتيه أي يعرض" (الزبيدي، 1974)، من خلال التعريفين يتضح أن المعجمات العربية حددت العنوان بمعان منها الظهور والاعتراض والمعنى والأثر، وأفادت إضافته إلى الكتاب معرفة القدماء بالعنوان وخصائصه. وفي الاصطلاح حددته الطريطر بالقول: "فاتحة الفاتحـــة لأنه أقرب توطئة إليها منه إلى سائر الأثر بحكم صدارته واحتلاله أولى مساحات الغلاف المهمة والمحيلة على خلية إبداعية أولى قادرة أن تحتضن كنه التصور الابداعي كله"

(الطريطر، 1996). إن هذا التصور يضفي على العنوان خصوصيات توحي بمفارقة بين كونه بنية لغوية مستقلة بمميزاتها الموقعية واللغوية وبين علاقته الدلالية بالمتن ووظيفته التداولية، يوضحها قول لوي هوك: "مجموعة العلامات اللسانية من كلمات وجمل، ونصوص، قد تظهر على رأس النص، لتدل عليه وتعينه، وتشير لمحتواه الكلي، ولتجذب جمهوره المستهدف"(Leo Hoek,1981: P.17.)، فهو علامة للكتاب لكونه عنصر من مجموع العناصر المكونة للكتاب، فهذا التحديد قد جمع فيه هوك "كل المستويات السيميائية للعنوان؛ اللسانية، والتركيبية، والدلالية، والتداولية.

بناء على المفاهيم السابقة، ستحاول هذه الدراسة مقاربة عناوين كتب أبي حيان محمد بن يوسف الغرناطي (ت. 745هـ)[ii] اللغوية لملاحظة مدى تمثلها للمفهوم الذي تضمنه نص لوي هوك، ومن جهة ثانية الكشف عن مظاهر النسق في هذه العناوين وإظهار خصائصه، وننطلق من فرضيتين:

الفرضية الأولى: أن مقدمات كتب أبي حيان تمثل نسقا.

الفرضية الثانية: أن مقدمات كتب أبي حيان تمثل نمطا.

والسؤال المحوري للدراسة: هل يمكن أن نتحدث عن نسق معين في مقدمات كتب أبي حيان الغرناطي؟ وهل القول بأنها تمثل نسقا دليل على وضوح الأسس الابستمولوجية والإطار المنهجي لدى أبي حيان في كتاباته اللغوية والنحوية؟

1/ البنية المعجمية.

يعتمد أبو حيان في اختيار مواد عناوينه اللغوية على سمات بارزة منها: الدقة في الاختيار، وحسن التوظيف، وصبغة التقييم، والتكامل الدلالي بتنويع اللفظ، والتكثيف الدلالي عن طريق الإيجاز؛ إذ تتراوح ألفاظ عناوين كتبه في النحو واللغة بين لفظ واحد، وسبعة ألفاظ، وأكثر ما يتجاوز الأربعة ألفاظ يكون جزؤه الثاني

عنوان الكتاب موضوع الشرح، ولا يلجأ قط إلى العناوين الفرعية، كما تبين اللائحة الاتية:

بعض عناوين كتب أبي حيان	بعض عناوين شروح أبي حيان لكتب غيره
التقريب	تقريب التقريب
المخبور في لسان البشمور	التدريب في تمثيل التقريب
منطق الخرس في لسان الفرس	منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك
جلاء الغبش عن لسان الحبش	التذييل والتكميل في شرح التسهيل
النكت الحسان	ارتشاف الضرب من لسان العرب
تحفة الاريب بما في القرآن من الغريب	النكت الحسان في شرح غاية الاحسان

ولاستجلاء حقيقة هذه العناوين والبحث فيها عن النسق حري بنا البدء بوصفها لغويا، لرصد المعاني المعجمية والسياقية التي تحملها مكوناتها المعجمية؛ ولضيق الوقت نقتصر فقط على الألفاظ النواة.

يعتمد كل عنوان من عناوين كتب أبي حيان على كلمة محور، مكثفة في معناها، ومتكاملة مع غيرها من الألفاظ من دون تناقض، نحو: منطق، وجلاء، ومنهج، وإدراك، وتذييل، وتكميل، وارتشاف، ومخبور، وتحفة.

إن هذه الالفاظ وغيرها كثير، إذ لكل عنوان كلمة مفتاح، تحمل دلالات كثيرة وعميقة في علاقتها بالمتن، كما أنها تتضمن أحكام قيمة قد نلخص المعنى المشترك بينها في التميز والشمول والعمق والوضوح، ومما يقوي دلالتها التعريف إن بالأداة أو بالإضافة.

فالارتشاف مثلا من رشف، مضافا إلى الضرب، يعني تقصي ما في الإناء وقيل إنه يعني ما فوق المص (ابن منظور، 2000).

الإدراك بالألف واللام يعني منتهى العلم والمعرفة بالمجال.

جلاء الغبش: جلاء من "جلا الأمر وجلاه وجلى عنه كشفه وأظهره، ويفيد هنا مطلق الوضوح لأنه مضاف إلى الغبش بمعنى: " غبش الليل وأغبش إذا أظلم ظلمة يخالطها بياض" (ابن منظور، 2000)، أي أنه وضحه وضوحا مطلقا لا تشوبه أية شائبة.

منطق الخرس: أي كلمه وناطقه (ابن منظور، 2000)، ويحمل المبالغة في الحمل على النطق والكلام لما فيه من مفارقة بين المضاف والمضاف إليه الخرس الذي لا يقوى على الكلام لعي في أصل الخلقة أو لمرض (ابن منظور، 2000)، والنطق الدال على الكلام.

يتبين من هذه الأمثلة أن النواة تعطي القارئ تصورا أوليا عن الموضوع وخلفيته وشخصية المؤلف المفتخرة بالذات والمنجز، كما أن فيها إيحاء أيضا بالمتلقي الذي تتفاوت مستوياته ودرجاته من المتخصص في "منهج السالك" إلى المبتدئ في "منطق الخرس" وما بينهما من مستويات.

إن هذه النواة أيضا، وإن تباينت في جذورها فإنها تتكامل فيما بينها؛ إذ يمكن لكل نواة عنوان أن تنوب عن نظيرتها في العنوان الاخر على وفق الاستبدال المحوري، إذا تجاهلنا خاصيتي السجع والجناس على الرغم من قيمتهما الجمالية البديعة ومقصد المؤلف من اعتمادهما الذي يؤكده حضورهما القوي في المقدمات أيضا.

فمثلا ارتشاف الضرب من لسان العرب قد يصير عن طريق استبدال النواة: الإدراك للسان العرب.

والإدراك للسان الأتراك قد يصير عن طريق استبدال النواة: جلاء الغبش عن لسان الأتراك.

منطق الخرس في لسان الفرس قد يصير عن طريق استبدال النواة: ارتشاف الضرب من لسان الفرس...

هكذا توحي نواة العناوين بمشروع أبي حيان اللغوي بشكل عام، وبمنهجه القائم على الاستقصاء والوضوح بحثا عن التميز وإدراك الغاية، كما يلي:

جلاء الغبش؛ يفيد أن هناك نقصا في المجال وضعفا في الأعمال السابقة، بمعنى: أنه يحدد، بحسب أدبيات المقدمة في التراث، دواعي التأليف.

ومنهج السالك يفيد تبني المؤلف لإطار نظري وخلفية فكرية، أي أنه يحدد المنهج.

والإدراك يبين الغاية والأهداف.

والنكت الحسان يفيد التميز في المجال.

وارتشاف الضرب يحدد النتائج المحققة.

هكذا يتضح أن عناوين كتب أبي حيان حددت عناصر المشروع الكبرى، وأنها ذات بعدين من حيث اللغة:

البعد الأول التداولي عبر ما وسمناه بالكلمة المحور أو النواة ذات الطابع القيمي المشفع بالاعتزاز بالذات والمنجز، ولعل التأثير في المتلقي هو المدعاة إلى اختيار هذا الأسلوب، ولا سيما إذا استحضرنا ما يؤكده أبو حيان في مقدمات كتبه من ضعف الملكة النقدية في عصره وتراجع الاهتمام بالكتب، وما لقيه شخصيا من الإهمال والفقر والتهميش[iii]؛ لذلك يقول في بعض مقدماته: "فإن في عصر بغاثه يستنصر وحماه يستحجر اللهم غفرا" (أبو حيان،1974: 2)، وهذا يبين أهمية الانفتاح على المقدمات في كشف بعض شفرات العناوين؛ بمعنى أهمية النسق الأفقي في قراءة العتبات.

البعد الثاني الدلالي: يبينه زمن العنوان: لهذه العناوين دلالة خاصة، إذ تختزل مشروع أبي حيان وخلفيته الفكرية وأسسه المنهجية. إن عناوينه تعتبر إضاءة لغوية تعبر عن المتن قبل الولوج إليه، وما من شك في قصديته، ولا سيما إذا ربطنا العنوان بالمقدمة حيث يوضح زمن العنونة وأسبابه المرتبطة بنتائج الكتاب وقيمته في نظر المؤلف التي تخلف أفق انتظار القارئ، يختم مقدمة التذييل والتكميل بالقول: "ولما علقت ذهب هذا الكتاب على نار الفكر حتى خلص، وكملت بحسن الصنعة ما كان قد نقص، وذيلت على فص التسهيل وشرح ما قد قلص، سميته بالتذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل". ويختم مقدمة منهج السالك بالقول: "ولما فتحت بهذا الكتاب من مقفل هذه الألفية مرتجا وأوضحت به لسالكي هذا الفن منهجا سميته بمنهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك" (أبو حيان،1974: 2)، مما يعني أن ألفاظ العنوان مستمدة من المتن ونتائجه، وأن العنوان اخر خطوة في الكتاب ومبني على أهم خصوصياته؛ وهي بناء المنهج وتيسير الطريق للسالكين للمسلك نفسه في التأليف والبحث، وهي ملاحظة تصدق على عناوينه كلها مما ينبئ بفكرة النسق، وقد أشارت انفا إلى أنه كان يعي مفهوم النسق وشروطه.

2/ البنية التركيبية:

للعناوين في كتب أبي حيان خصائص عدة، نجملها في الاتي:

الخاصية الاسمية: أول ملاحظة نسجلها اشتراك عناوين كتب أبي حيان في أنها جمل اسمية، تفيد الثبات والاستمرار، وهي ميزة مناسبة لطابعه الوصفي، بمعنى استمرار دلالته ومقاصده لصلاحيتها في كل زمان، وكذا علاقتها بالمتن باعتبارها اسما له وسمة وأثرا (عويس، 1988: 17)، ولعل هذا مما يؤكد خاصية الاسمية في مفهومه ويعززه أمران:

1/ بنية المقدمة التركيبية، باعتبارها تفصيلا لما أجمل في العنوان وناطقا بما خلف سطوره، إذ تغلب عليها الجمل الاسمية المباشرة، مع اطراد الحذف، وهذا أيضا ينسجم مع الميل إلى قصر المقدمات والتي لا تتجاوز معظمها صفحة ونصف.

2/ حضور المصدر كصيغة صرفية في معظم هذه العناوين مع تنويع بين الميمي والصريح، والقياسي والسماعي، وتباين في الصيغ، وإن طغت عليها صيغة تفعيل المفيدة للمبالغة والتكثير والتحويل، وهو أمر مناسب لمشروع أبي حيان في تجديد نهج التأليف في النحو: تذييل، وتكميل، وتقريب، وتدريب.

وتدعم صيغة المصدر صيغتان، هما: صيغة اسم الفاعل في عنوانين فقط السالك في "منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك"، ومنطق في كتاب "منطق الخرس في لسان الفرس"، وصيغة اسم المفعول مرة واحدة مخبور.

هكذا تبدو الصيغة الصرفية ثلاثية ـــ وللعدد ثلاثة حضور قوي في عتبات أبي حيان؛ فمعظم المقدمات مثلا تحدد دواعي التأليف في ثلاثة ـــ وتتكون من:

المصدر: المفيد للحدث في مطلق الزمان، وهو الغالب؛ إذ هو الذي يمثل الموضوع المتعدد لتعدد اللغات والكتب، وإن تقاربت في المنهج والهدف، وهو حاضر في العناوين كلها مما يفيد شمولية المنهج وصلاحيته لدراسة الأنحاء بشكل عام.

اسم الفاعل: يمثله المؤلف والقارئ المفترض، مرة واحدة لكل منهما، وإن اختلفت مستويات القراء فقد اكتفى في العنوان بالإحالة عليه بشكل عام "السالك،"، لكون العناوين مبنية على التكثيف عن طريق الاختصار والاختزال، وستوضحه المقدمات، وبخاصة مقدمة التذييل والتكميل ومقدمة منهج السالك؛ إذ حددتا أنواع القراء المفترضين في المبتدئ والمتخصص والناقد[iv].

المفعول: وهو الهدف والغاية، مرة واحدة لاتساق الموضوعات ووحدة المنهج والهدف العام، وإن وجدت لكل كتاب أهداف تميزه.

إن هذا التكامل في البنية وانسجام الكم مع الدلالة من جهة، ومع أسلوب المقدمة من جهة ثانية يعطي القارئ اطمئنانا إلى وجود نسق صرفي وتركيبي يتيح افتراض الموضوع والهدف والقارئ المفترض في المقدمات كلها.

الخاصية الثانية: أن عناوين كتب أبي حيان جمل اسمية مكونة من جزأين أحدهما على الأقل يتضمن حرف جر، مع الحرص على أن يكون الجزء الأول معرفا بالأداة أو بالإضافة، مما يعطي فرصة أوسع للتأويل.

بخصوص حروف الجر، جميع عناوين كتب أبي حيان في اللغة والنحو تتضمن على الأقل حرف جر، ومنها ما تضمن حرفين، ولا سيما منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك، وتحفة الأريب بما في القرآن من الغريب. ولأن لكل حرف معنى خاصا مع إمكان التناوب على وفق رأي من قال بجوازه، فقد حرص أبو حيان على تنويع الحروف المعتمدة لتحيط عناوين كتبه بمعاني حروف الجر، فاعتمد "اللام" الدالة عل الملكية في كتاب الإدراك للسان الأتراك، و"في" الظرفية و"على" للاستعلاء في كتابه منهج السالك، و"الباء" للمصاحبة والتبعيض في تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، و"من" لابتداء الغاية في ارتشاف الضرب من لسان العرب، و"عن" المضمن للمجاوزة[٧] في عنوان كتابه جلاء الغبش عن لسان الحبش.

هكذا يتضح النسق المقصود في هذه العناوين، إذ أحاطت بحروف الجر، فكانت متكاملة وشكلت نسقا قابلا للإبدال والقراءة والتأويل.

الخاصية التركيبية الثالثة: أن هذه العناوين تبدو في صورة عدم الاكتمال، تحتاج في فهم معناها إلى مجاوزة بنيتها السطحية إلى البنية العميقة على وفق قواعد التحويل؛ فهي جمل اسمية حذف مبتدؤها ويمثله اسم الإشارة المفيد للتحديد

والتعيين، مع إمكان افتراض العكس لكون الركن المذكور معرفا- أخذا بمبدإ الاقتصاد اللغوي- وصالحا لأن يبتدأ به، أي: أن المذكور قد يعرب مبتدأ والمحذوف خبرا أو العكس، ومع ذلك لا يلقى المتلقي أي عنت في إدراك معناها مكتملا، مما يفيد أن هناك افتراضا بين المرسل والمتلقي، يؤسس للعناصر المضمرة في سياق التخاطب، بالاعتماد على الكفاءتين اللغوية والتداولية التي يمتلكها المتلقي والمرسل بدرجات متفاوتة وبالانفتاح أيضا على المقدمات التي تملأ بعض ثغرات العنوان.

بالرجوع إلى اللائحة السابقة نلحظ أن هذه العناوين تخلو كلها من المكونات الفعلية الأدائية المنجزة أو على الأقل لا تظهر في بنيتها السطحية، لكن تبدو في قصدية الكاتب وتستلزم حوارا بينه وبين المتلقي المصرح به في بعض المقدمات من دون غيرها. ونؤول المكون الاشاري بـــ"هذا" نحو:

هذا كتاب الادراك للسان الأتراك.

هذا منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك.

هذا تقريب المقرب.

وقد يستبعد هذا التأويل في بعض العناوين، نحو: جلاء الغبش عن لسان الحبش، الذي أرى أنه يحسن فيه تقدير أن المبتدأ مذكور والخبر محذوف وقابل للتأويل بكائن.

يلحظ، إذن، أن هذه العناوين تخلو من الحدث/ الفعل ويتم إدراكه بالاعتماد على ما يسمى استراتجية الاستنتاج واستراتيجة التلقي[vi].

الخاصية الرابعة الإضافة: تتفق عناوين كتب أبي حيان في الظاهر في أنها جمل اسمية مركبة تركيبا اضافيا، يقيم علاقة تفاعلية بين اسمين: مضاف ومضاف اليه.

إن غالبية عناوين كتب أبي حيان تتركب من مركبين اسميين يتعالقان بحرف جر كما تبين الخطاطة الآتية:

مركب اسمي اضافي	حرف الجر	مركب اسمـــي اضـــــافي
مضاف مضاف اليه	حرف الجر	مضاف مضاف اليه
منهج السالك	في	ألفية ابن مالك
جلاء الغبش	عن	لسان الحبش
منطق الخرس	في	لسان الفرس

وأقلها مركب من:

أداة التعريف	اسم مفرد	حرف جر	مركب اسمي أضافي
ال	إدراك	لـــ	لسان الأتراك

وقد يتكون من مركب اسمي إضافي فقط، نحو تقريب المقرب المكون من مضاف ومضاف اليه.

وهناك عنوان واحد فقط خال من المركب الاسمي الإضافي ومكون فقط من أداة التعريف واسم مفرد: التقريب.

إن اختيار أبي حيان للتركيب الإضافي، إلى جانب الإشارة الضمنية المفيدة للتعيين، يعكس قصده إلى جعل عناوين كتبه دقيقة تقيد الموضوع وتحصره، كما تحدد متلقيه بناء على مفهوم الإضافة: "إسناد كلمة إلى غيرها للزيادة في المعنى وأكثر تحديدا عقد صلة معنوية بين متضافين، كل منهما أضاف جديدا إلى صاحبه"، فمثلا:

منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك والإدراك للسان الأتراك حددا:

الموضوع:	**الكلام على ألفية ابن مالك**	**دراسة لسان الأتراك**
مادة الدراسة:	**ألفية ابن مالك**	**لسان الأتراك**
المتلقي:	**السالك**	**المتعلم للغات الأتراك**
الهدف:	**وضع المنهج**	**الإدراك**

وتتأكد غاية الحصر والتحديد بالانفتاح على المقدمات التي هي، في نظري، تحليل أولي للعنوان وتركيز على المميزات، يقول مثلا في الإدراك: " فبلغت بلطيف الإدراك إلى أحسن مراد وحصلت بكثرة السؤال أوفر مطلب وأوفى مراد وجنيت من رياض هذا اللسان فوائد الذمن الجنى واستخرجت من بحار علومه فرائد هي غاية المنى وأدركت به الأمل من هذا اللسان وحزت فيه قصب الرهان لذلك سميت كتابي هذا بكتاب الإدراك للسان الأتراك"(أبو حيان، 1930: 2) وفيه تأكيد للحصر والتخصيص وتصريح به؛ إذ يحاول أبو حيان أن يجعل هذا الكتاب قصرا على جملة من الخصائص في علاقته بلسان الأتراك من السبق والإحاطة والتنظيم والإفادة والمادة، وفي النص أيضا، فضلا عما سبق، إشارات إلى علاقة المقدمة بالعنوان مما يزكي فرضية النسق الأفقي، ذلك أن فهم العنوان وبيان أسباب اختياره يقتضيان الانفتاح على المقدمة لخلق أفق انتظار قد يثبته المتن كما أنه قد يكسره.

3ـ وظائف العنوان:

العنوان للكتاب مثل الاسم للشيء به يعرف ويتداول، إنه ضرورة كتابية ومنطلق أساس للقراءة، لذلك اختزل جيرار جنيت وظائفه في ثلاث، وهي: التعيين والوصف والإغراء(Genette, 1988 : 80)، وهي وظائف تضطلع بها عناوين كتب أبي حيان في شكلها المجزأ أو الكلي أو في علاقتها بالمقدمة.

-1- وظيفة التعيين:

يقصد بالتعيين أن العنوان مسمى المتن ولذلك فهو يعينه (عويس: 1988، 17)، وتتضح هذه الوظيفة في عناوين كتب أبي حيان من خلال المقدمات؛ إذ يذيل كل مقدمة ببيان أن العنوان من اختياره، وأنه يقدمه ليحدد به هوية المتن بعد ولادته، إنه رسالة منه إلى القارئ بعد الانتهاء من الكتاب، وكأن المؤلف يقرأ الكتاب ليعنونه، يقول في مقدمة النكت الحسان مثلا: "وسميتها النكت الحسان في شرح غاية الإحسان، فربما اشتملت على فوائد لا تقتبس إلا منها، وفرائد لا تؤثر إلا عنها، والله أسأل أن يجعل ذلك مرقاة الى فهم كتابه" (أبو حيان، د.ت، 31). يلحظ أن العنوان مستمد من صفات الكتاب، إذ الفرائد والفوائد تعنيان النكت كما أن أول كلمة افتتح بها الكتاب قوله: "هذه النكت أمليتها"(أبو حيان، د.ت،31).

ومع ذلك يمكن للعنوان أن يعانن النص ويعارضه من خلال القارئ الذي يضطلع بدوره التأويلي والتفاعلي، لأن العنوان مداره التخاطب والحوار بين الكاتب والقارئ ليكشف عن قصديات الكاتب وهو يوصل عمله للقارئ، إذ بين مقصديات الأول والخلفية المعرفية للثاني يقع تأويل العنوان وتداوله، فيقر بتقييم المؤلف وانسجام العنوان والمضمون أو يعارضه وينفيه، وقد يقترح البديل، وإن كان أبو حيان في هذه الحالة يبدو مغترا، إذ يجزم باقتناع القراء بأفكاره بالقول: "يعترف بفضلها من كان لفضل صاحبها جاحدا"(أبو حيان، 1974: 2)، وكأنه لا يقر بالنقد ولا يقبله.

-2- وظيفة الوصف: تعد من أهم الوظائف، إذ هي المسؤولة عن تحديد مضمون الكتب وعن انتقادات القراء للعنوان إذا أخفق في وصف الموضوع، وهي وظيفة تحمل في طياتها قيمتين:

الأولى موضوعاتية: على أساسها تحدد الموضوعة المركزية للعناوين الجامعة بينها، وقد حددناها انفا في تجديد التأليف في النحو بشكل عام وكلي، وقد صرح به في مقدمة كتاب الإدراك للسان الأتراك بصفة العموم بالقول: "فإن ضبط كل لسان يحصل بمعرفة ثلاثة أشياء"(أبو حيان، 1930: 5)، وكذا في ارتشاف الضرب من لسان العرب، ثم إن كل عنوان يحدد موضوع الكتاب الذي يعنونه، أي أن هناك وصف عام مجمل ثم وصف خاص مفصل.

الثانية نقدية تقييمية: إذ أن كل عنوان يحمل قيمة كما سبق؛ ومجمل هذه الأحكام تعطي الفكرة العامة لأعماله كما يراها المؤلف، قد يقتنع بها القارئ على وفق أفق انتظاره ومن خلال قراءته للمتن في ضوء العنوان وقد لا يقتنع.

وإذا كانت الوظيفة الوصفية في العناوين بملفوظات مجملة وموجزة تخلق أفق انتظار القارئ فإن المقدمة تفصل بعض ما أجمله وتوسع أفق الانتظار عبر مرحلتين:

الأولى: براعة الاستهلال في الديباجة؛ إذ يضمن المؤلف عباراته بعض ما يوحي بموضوع الكتاب ومجاله المعرفي تلميحا كما في منهج السالك بالقول: "حمد الله أعذب ما نطق به اللسان"(أبو حيان، 1974: 1)، فاعتمد فعل نطق الدال على أن الموضوع ذو صلة باللغة و"اللسان" الذي ينبئ بدراسة بنية القول، أو تصريحا كما في مقدمة التذييل والتكميل يقول: "وجعل من أشرف المعارف ما تحلى به جنان العارف من علم النحو الذي هو المرقاة الى فهم كتابه"(أبو حيان، د.ت، 1/5)؛ إذ صرح بالمجال المعرفي للكتاب وهو النحو.

الثانية: تحديد الموضوع مباشرة بعد فصل الخطاب والتصريح بدواعي اختياره التي تتلخص غالبا في ثلاثة، يفتتح مقدمة منهج السالك مثلا بالقول: "قصدي في هذا الكتاب ...." (أبو حيان، 1974: 1)، ويجملها في الإدراك بالقول: "وكنت قد

صنفت ولخصت في علوم لسان العرب كتبا كثيرة" (أبو حيان، 1930، 5)، وفيه إشارة إلى النسق في الكتب ونظامه في التأليف؛ إذ درس النحو العربي قبل الانفتاح على الأنحاء الأخرى، مما يعكس وضوح الرؤية والعمد إلى نسق محدد في التأليف، والمباشرة في أسلوب المقدمات، والتمكن من أدبيات الكتابة التي تأبى الحشو والإطناب.

-3- وظيفة الاقناع ــ ولا أسميها الاغراء لأنها ترتبط بالتسوق، وأبو حيان لا يوصي بشراء الكتب وانما ينص على البخل والاكتفاء بالإعارة. وترتبط في هذه الكتب بالوظيفتين السابقتين، وتتمثل في قوة إنجازية ينجز من خلالها المؤلف أفعالا كلامية حول كيفية حمل القارئ على الاقتناع بأعماله وتمثلها بنية العنوان المعجمية والتركيبية، ولا سيما نواتها اللفظية وصفة الحذف والإضافة.

وتزكيها المقدمة عبر النصوص المبينة لسبب التسمية، والتي تسمو بمقدمات كتبه الى مرتبة الاقتناع بتقييم كتبه بشكل عام كما في مقدمة الإدراك حيث يقول: " وكنت قد صنفت ولخصت في علوم لسان العرب كتبا كثيرة منها كتاب التقريب... وغير ذلك من الكتب التي تشنف الأسماع وتشرف الطروس والرقاع"(أبو حيان، 1930، 5)[vii]، أو كل على حدة كما في مقدماته كلها، يقول في منهج السالك: "وإذا بلغنا من الكلام ما أردنا ووصلنا الى ما له قصدنا فلنبرر ما وعدنا به دررا تتحلى بها الاجياد وغررا تتحلى بها التهائم والنجاد,,, يعترف بفضلها من كان لفضل مستخرجها جاحدا"(أبو حيان، 1974، 2) ويقول في مقدمة التذييل والتكميل: "فدونك ــ أيها السائل ــ من هذا الشرح كتاب غريب المثال، قريب المنال، هبت عليه النفحات اليمانية واجتمعت فيه المعاني الثمانية، وهي التي يصنف فيها العلماء، ويتطلبها من التأليف الفهماء"(أبوحيان، دت،11/1).

هكذا خالف أبو حيان الطابع المهيمن في كتب التراث؛ وهو الاعتذار عما في الكتاب من تقصير للتخفيف من الانتقادات، واستبدله بأساليب حجاجية تفيد الفخر والتعظيم للإقناع، وهو أمر سوغه بظروف عصره وما لقيه شخصيا من الإهمال كما تبين النصوص السابقة. وإحساسا من أبي حيان بمخالفة الأصل والمبالغة في تمجيد الذات والفخر بالمنجز، التمس العذر لنفسه عبر الميز بين نوعين من القراء، القارئ لعمله والقارئ لعمل غيره بالقول في مقدمة التذييل والتكميل: "فالشارح لكلام غيره ليس كالشارح لكلام نفسه، ذلك ينظر اليه بعين الاستدراك والانتقاد، وهذا يشرح كلام نفسه وله فيه حسن الاعتقاد"(أبو حيان، دت، 9/1).

بقي أن نتساءل هل هناك نسق؟

خاتمة:

بقراءة عناوين كتب أبي حيان قراءة عمودية وفي ضوء المقدمة يخلص القارئ إلى أنها خاضعة لموضوعات كتبه تستمد منها، وأنها ذات بنية لغوية وتركيبية مباشرة تستهدف الاتصال المباشر الذي يرسخ مجموعة من التوقعات في ذهن القارئ، لذلك غلب التركيب النحوي المباشر على التركيب الأدبي المتسم بالانزياح. فكانت متناسقة في دلالاتها وفي لغتها وأسلوبها، وممثلة للغة المجال المعرفي القائم على الاقتصاد من جهة، والوضوح من جهة ثانية، في بنيتها الظاهرة على الأقل.

إن عناوين كتب أبي حيان تمثل نسقا على وفق بنيتين:

بنية أفقية تتمثل في العلاقة بين عتبات الكتاب الواحد والتي تقوم على الإجمال والتفصيل من جهة، والإيجاز والإسهاب من جهة ثانية، والتنظير والتطبيق من جهة ثالثة، ولا تحتمل البنية التناقض ولا التعارض.

بنية عمودية تتمثل في العلاقة بين عناوين كتبه كلها التي تشترك في عناصر وخصائص، وتتمايز في أخرى من دون أن تتناقض، وإنما تتكامل لتشكل رؤية المؤلف للموضوع وتبين عن تصوره وتؤسس لأفق انتظار القارئ.

وأن استيعاب مقدمات كتب أبي حيان يقتضي استثمار القراءة النسقية والسياقية واستحضار المقاربة اللسانية والنحوية والتداولية والأسلوبية.

لنختم بأن العتبات ينبغي أن تقرأ قراءات متعددة وفي كل قراءة قد نستخلص نتائج جديدة.

وأننا بحاجة إلى دراسة تاريخية للعتبات في تراث الغرب الاسلامي، فهي تحمل دررا ونفائس لم تفكر بعد وبخاصة في مجال اللغة؛ إذ الدراسات السابقة في الموضوع ركزت عل الشعر والرواية من دون غيره من المجالات المعرفية.

المصادر والمراجع:

- بلعابد عبد الحق: مكونات المنجز الروائي (تطبيق شبكو القراءة على روايات محمد برادة)، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، تخصص قضايا الأدب ومناهج الدراسات الأدبية والنقدية، كلية الاداب واللغات،جامعة الجزائر، ص.ص 67ــ 68.
- أبو حيان الغرناطي (محمد بن يوسف): الإدراك للسان الأتراك، اعتم بتصحيحه جعفر اوغلي محمد، اسلامبول: مطبعة الأوقاف، 1930.
- أبو حيان الغرناطي (محمد بن يوسف): التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، حققه الدكتور حسن هنداوي، دار القلم، دمشق
- أبو حيان الغرناطي (محمد بن يوسف): منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك"، تحقيق سيدني جلازر، نبوهافن بالولايات المتحدة، سنة 1947.
- أبو حيان الغرناطي (محمد بن يوسف): النكت الحسان في شرح غاية الإحسان، تحقيق ودراسة عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، دت.
- الداودي (الحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد المتوفى سنة 945هـ): طبقات المفسرين، راجع النسخة وضبط أعلامها لجنة من العلماء بإشراف الناشر، ط1، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، 1403هـ/1983م.
- روزنتال.من يودين. ي. : الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، ط1، بيروت: دار الطليعة، 1974.

- ـــ مفتاح محمد: التشابه والاختلاف، ط1، بيروت لبنان، المركز الثقافي العربي، 1996.
- الزبيدي (مرتضى): تاج العروس، دراسة وتحقيق علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1994.
- عبد الرحمن عبد الدايم: النسق الثقافي في الكناية، رسالة ماجستير، تخصص اللغة والأدب العربي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2011.
- الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك): نكت الهميان في نكت العميان، د.ط، مصر: المطبعة المصرية، 1329هـ/1911م.
- الطريطر (جليلة): في شعرية الفاتحة النصية: حنا مينا نموذجا في ثلاثية: بقايا صور، المستنقع، القطاف، في: (علامات في النقد، ج.26، شتنبر 1996، ص.ص 143_ 178).
- ابن عبد الله (مصطفى الشهير بحاجي خليفة): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون مع مقدمة لشهاب الدين النجفى المرعشى، د.ط، بغداد: منشورات مكتبة المثنى.
- عويس، محمد، العنوان في الأدب العربي النشأة والتطور، ط.1، مصر: مكتبة الانجلو المصرية، 1988.
- ابن منظور: لسان العرب، ط.1، بيروت: دار صادر، 2000.
- Annie Rouxel : La lecture méthodique ; edAdapt ; Paris ; 1996 .G. Genette, seuils, ed Seuil, Paris, 1988.
- Leo Hoek : le manque du titre (dispositif Sémiotique d'une pratique textuelle), ed la Haye mouton, Paris, 1981.

الهوامش:

[i] ـــ قد كان أبو حيان الغرناطي على وعي بمفهوم النسق يقول في مقدمة كتابه التذييل والتكميل: "كان من بعض المعتنين بهذا العلم تشوف إلى أن أشرح الكتاب كاملا، ولا أترك منه مكان حلي عاطلا، ليكون الكتاب كله جري في الشكل على نسق واحد"، 9/1.

[ii] ـــ أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان ، النفزي، الأثري، الغرناطي، المزداد سنة 654هـ والمتوفى سنة 745هـ، من تصانيفه "ارتشاف الضرب من لسان العرب" و"الإدراك للسان الأتراك" و"التدريب في تمثيل التقريب" و"التذييل والتكميل في شرح التسهيل" و"تفسير البحر المحيط" والمخبور في لسان اليخمور" و"منطق الخرس في لسان الفرس" و"منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك" و"نور الغبش في لسان الحبش".... وقد أوجزت في الترجمة لأن كتب التراجم أغنتني عن الإطالة ، من مثل:
الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك): نكت الهميان في نكت العميان، دط، مصر: المطبعة المصرية، 1329هـ/1911م، ص ص280-286.

والداودي (الحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد المتوفى سنة 945هـ): طبقات المفسرين، راجع النسخة وضبط أعلامها لجنة من العلماء بإشراف الناشر، ط1، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، 1403هـ/1983م، 291-287/2.

وابن عبد الله (مصطفى الشهير بحاجي خليفة): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون مع مقدمة لشهاب الدين النجفى المرعشى، دط، بغداد: منشورات مكتبة المثنى، 153/1 و1864/2.

[iii]ـــ يقول في مقدمة كتابة التذيل والتكميل لشرح التسهيل: "هذا على حين توالي نوى غربة، وإقامة بدار غربة، وتفريق من الأوداء، وتفويق سهام الأعداء، والتباس الذهب بالرغام، والتماس الرتب من الطغام، وترقي الجهال الى مناصب العلماء، وتوقي طعن اللؤماء على الفهماء (...) اللهم صبرا وسترا لما اجترحناه وغفرا". التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، حققه الدكتور حسن هنداوي، دار القلم، دمشق,8/1ـــ9.

[iv]ـــ يقول في مقدمة منهج السالك: "لا سيما مبتدئ القى في روعه تعظيم هذه الألفية وأنها بمقاصد النحو وفية....يزهى بمحاسنها الفطن وإن كان حاسدا ويعترف بفضلها منكان لفضل مستخرجها جاحدا"، ص.2.

[v]ـــ معنى الحرف المذكور هنا لا يعني حصر دلالته في هذا المعنى وانما فقط المعنى المناسب للسياق والمبين للتكامل من دون إنكار لغيره من المعاني التي تتجاوز في بعضها عشرة معان.

[vi]ـــ مصطلحان اعتمدهما روسل في كتابه:

Annie Rouxel : La lecture méthodique; edAdapt; Paris; 1996.

ينظر أيضا: بلعابد عبد الحق: مكونات المنجز الروائي (تطبيق شبكو القراءة على روايات محمد برادة)، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، تخصص قضايا الأدب ومناهج الدراسات الأدبية والنقدية، كلية الآداب واللغات،جامعة الجزائر، ص.ص 67ـــ 68.

[vii]ـــ أبو حيان: منهج السالك، ص2, ويقول مثلا في مقدمة التذييل والتكميل: "ولما علقت ذهب هذا الكتاب على نار الفكر حتى خلص، وكملت بحسن الصنعة ما كان قد نقصه، وذيلت على فص "التسهيل" وشرحه ما قد قلص سميته بـــ"التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل"،التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، حققه الدكتور حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، 12/1.